نشأته وسيرته

[١]

ولد بشـار فى أواخر القـرن الأول للهجـرة - سنة ٩٥ على الأرجح - وكانت ولادته بالبصـرة. أما أين منها، فتحـقيقة عناء لا طائل تحتـه ولا خير فيه. وأبوه "برد" من سبى المهلب بن أبى صفرة على الشائع. ويروى بعضهم أن أمه كـانت لرجل من الأزد أراد أن يتزوج امرأة من بنى عقـيل، فأعتقـته. والروايات متفقة على أنه ولد على الرق، وأن التى أعتقته امرأة عقيلية.

وأبوه برد بن يرجـوخ. وإذا صح أن حمـاد عـجرد هجـا بشارا بهـذه الأبيات:

يابن برد إخـسأ إليك فـمـثل الـ ـكلب فى الناس أنت لا الانسـان

بل لعـمـرى لأنت شـر مـن الكلـ ـب وأولـى منـه بكـل هـوان

ولـريـح الخـنزيـر أهـون مـن ريـ ـحك يا بن الطيـان ذى التبـان[1]

فأبوه برد كان طيانا يضرب اللبن، ومع ذلك يذكرون لبشار نسبها طويلا يصل إلى الجلد السادس والعشريـن! ولاشك أن اختراع هذا النسب بعض ما أغرت به الشهوة التى نالها الشاعر، وقد جرى الذى اخترعه على عادة العرب فى حفظ الأنساب والعناية بهـا وإن لم يكن الفرس دونهم عناية بالأنساب من جراء نظام الطبقات عندهم.

---

(١) التبان: سراويل قصير كالذى يتخذه لاعبو الكرة

وكل ما يستفاد من هذا النسب الملفق هو أن بشارا فارسى. وقد أغنانا هو عن هذا العناء بقوله يفخر بأصله:

ونبئت قوما بهم جنة يقولون من ذا؟ وكنت العلم

ألا أيها السائلى جاهدا ليعرفنى، أنا أصل الكرم

نمت فى الكرام - بنى عامر - فروعى، وأصلى قريش العجم

وزعموا أن بشار قال إنه من طخار ستان - غربى نهر جيحون - "ومن أكثرها فى الفرسان" وهذا فخر بالأصل العام لا بالمنبت الخاص، وبالقومية الفارسية التى أدال العرب دولتها، ومحوا ملكها وعزتها، ولم يستيطعوا أن يميتوها فبقيت حية متحفزة حتى قاسمت العرب دولتهم ومجدهم وتراثهم، ثم استرجعت ولغتها وإن كانت قد بقيت على الإسلام.

وقد ألقى بشار بهذا الفخر فى وجه المهدى الخليفة العباسى الثالث جوابا عن سؤاله "فيمن تعتد يا بشار" فقال "أما اللسان والزى فعربيان، وأما الأصل فعجمى، كما قلت فى شعرى يا أمير المؤمنين".

وأنشد الأبيات التى أوردناها.

وكان حسبه أن يفخر بنفسه، وبما رزق من المزية والفضل، كما فعل المتنبى حين قال:

لا بقومى فخرت، بل فخروا بى وبنفسى شرفت لا بجدودى

مؤثرا أن يبدى الغنى عن استمداد بواعث الفخر من الآباء والجدود. وكل من المتنبى وبشار كان يشعر بضعة أصله. وأحسب أن كليهما كان يثقل على نفسه هذا الشعور. وفى طباع الانسان أن يحاول تعويض ما يعلم أنه فيه

من النقص أو العيب أو القصور. فأما بشـار فأهمل ذكر أبيه واندمج فى قومه الفرس، وراح يفيض على نفسه - أو يتقبس لها - من مجدهم التالد. ولم يكفه ذلك فقال ضمنا: إنه إذا كان أهله قد أخنى عليهم الدهر، وجر عليهم الفتح العربى السبى والفقر، فقد كانوا قبل ذلك من الفرس بمنزلة قريش من العرب. وهذا احتيال لتعويض ما يحسه الشاعر من هو إن الأصل على الواقع فى زمنه كائنا ما كان الأصل فى الزمن الخالى.

وأما المتنبى فقد ترك المألوف من التفاخر والجدود، وقال إن نفسه سودته، وإن المجد الحقيقى هو الشجاعة والطعنة البكرو "تضريب أعناق الملوك".

وتركك الدنيا دويًا كأنما تدوال سمع المرء أنمله العشر

وما كان ليشار - وهو أعمى - أن يذهب هذا المذهب. ومثل بشار، مهيار الديلمى فى أنه فارسى، وأنه فخر حين عرض له ما يدعو إلى الفخر، بأصله الفارسى. غير أن مهيارا كان حديث الإسلام على يدى أستاذه الشريف الرضى. فجعل الفخر قسمة بين الفرس والعرب وقال:

وأبى كسرى علا ايوانه أين فى الناس أب مثل أبى؟

قد قبست المجد من خير أب وقبست الدين من خير نبى

وضممت الفخر من أطرافه سؤدد الفرس ودين العرب

وهذا معقول من رجل حديث العهد بالخروج من المجوسية إلى الإسلام، أما بشار فكان أعمى لا يستطيع أن يفخر كالمتنبى بالفروسية والشجاعة، وكان "متحيرا مخلطا" انتهى به الأمر إلى الاتهام بالزندقة، فإذا

كان قد اكتفى من ذكر العرب فى هذا المقام بنمو "فروعه" - لا أصوله - فى "الكرام بنى عامر" - وما أقل ذاك! فلا عجب. وقد فخر فى أبيات له بفضله ولكنه إنما فعل ذلك ليبرأ من ولاء العرب كما سنرى فيما بعد.

وفى الروايات عن أبيه برد بن يرجوخ بعض الاختلاف، فإحداها تقول إن بردا هذا فى خيرة القشيرية امرأة اللهب بن أبى صفرة. وكان مقيما لها فى ضيعتها بالبصرة، المعروفة "بخيرتان" مع عبيد لها واماء. فوهبت بردًا - بعد أن زوجته - لامرأة من بنى عقيل كانت متصلة بها. فولدت له امرأته، وهو فى ملكها، بشارا، فأعتقته العقيلية.

وتقول رواية أخرى إن بردا كان مولى "أم الظباء العقيلية الدوسية" وقد تكون أم الظباء هذه هى التى وهبتها خيرة القشيرية بردا وامرأته. على أن أبا الفرج يروى أن أم الظباء هى امرأة أوس بن ثعلبة أحد بنى تيم اللات ابن ثعلبة. وكان أحد فرسان بكر بن وائل بخرسان.

ويظهر أن بردا كان حاذقا فى صناعته. ولم يكن بها رقيق الحال فقد حكى بعضهم أن أباه أراه بيتين له وقال "لبن هذين البيتين من ضرب برد أبى بشار" على أنه لا حاجة بنا إلى الاستنتاج فقد قال أبو عبيدة عنه "كان برد أبو بشار طيانا حاذقا بالتطيين".

وكان بشار متلونا فى ولائه، يفتخر مرة بولاء بنى عقيل من قيس عيلان فيقول:

اننى من بنى عقيل بن كعب موضع السيف من طلى الأعناق

ويمدحهم فيقول:

أمنت مضرة الجهلاء إنى أرى قيسا تضر ولا تضار

كأن الناس حين تغيب عنهم نبات الأرض أخطأه القطار

ومرة يتبرأ من ولاء العرب جميعا ويتمرد عليهم قاطبة فيقول:

أصبحت مولى ذى الجلال، وبعضهم مولى العريب، فخذ بفضلك فافخر

مولاك أكرم من تميم كلها أهل الفعال ومن قريش المشعر

فارجع إلى مولاك غير مجافع سبحان مولاك الأجل الأكبر

وليس هذا منه عن تدين وإيمان. وإنما هو مخرج له من الولاء الذى استثقله عليه، وعلى أن "ذا الجلال" هنا تعبير عام ليس من الضرورى أن يكون مدلوله عنده ما يفهمه منه المسلم.

وغير مستغرب أن يفخر بشار بقومه الفرس فى مجلس الخليفة العباسى، العربى، فقد كان الفرس هم الذين بثوا الدعوة فى خراسان، ومنها "لآل البيت" ولابراهيم الامام أولا، ثم لأبى العباس، وكان أبو مسلم الخراسانى هو الذى تغلب على البلاد باسم آل البيت ثم فوجئت الكوفة بتزكية أبى العباس ومبايعته. فاحال كانت تسعف من يتعصب للعجم كبشار، وتغرى الشعور القومى بين الفرس بالظهور بعد أن صار لهم شأن. فما كان قيام الدولة العباسية إلا مظهرا لانتصار العنصر الفارسى على العنصر العربى، والا إيذانا بوشك اصباغ الحياة فى مظاهرها المختلفة فى البلاد الإسلامية الشرقية بصبغة أجنبية، ونقول البلاد الإسلامية الشرقية لأنها كانت موطن الصراع بين الفرس الذين ذهبت دولتهم والعرب الذين جاءت دولتهم. أما منها بل كانت خاضعة للروم، فلما فتحها العرب لم يختلف حالها من هذه الناحية، وآتاها

الحكم العربى العـدل والحرية فرضيت وسكنت ودخلت فى الإسـلام فصارت لها قومية دينية أعم من قوميتها الخاصة.

[٢]

وقد ولد بشار مكفوفا، وفى ذلك يقول:

عميت جنينا، والذكاء من العمى فجئت عجيب الظن، للعلم موئلا

ونشأ فى البصرة وتعلم على شيوخها، فلما أيفع أخرج إلى البادية.

روى بعضهم أنه سـأل بشارا "ليس لأحد من الشعراء العـرب شعر إلا وقد قال فـيه شيئا اسـتنكرته العرب من ألفاظمهم وشك فـيه، وإنه ليس فى شعرك ما يشك فيـه" فقال "ومن أين يأتينى الخطأ؟! ولدت هنا، ونشأت فى حجـور ثمانين شيخـا من فصحـاء بنى عقيل ما فـيهم أحد يعـرف كلمة من الخطأ. وإذا دخلت إلى نسائهـم، فنساؤهم أفصح منهم. وأيفـعت فأبديت، إلى أن أدركت. فمن أين يأتينى الخطأ".

ومؤدى هذا - على مـا فيـه من المبالغة - أنه أخـذ اللغة عن علمـائها الحضر والبادية.

وقال الشعر وهو صبى، لم يبلغ العـاشرة، فلما بلغ الحلم كان مخشى معرة لسانه لسلاطته وافحاشه فى الهجاء.

ووصفـه الأصعمى فـقال: "كان بشـار ضخما عـظيم الخلق والوجه، مجـدورا جاحظ المقتلين، قـد تغشاهمـا لحم أحمر، فكان أقـبح الناس عمى وأفظعه منظرا، وكان إذا أراد أن ينشد صفق يديه، وتنحنح، وبصق عن يمينه وشماله ثم ينشد فيأتى بالعجب"..

وقال هو فى صفة نفسه "والله إنى لطويل القامة، عظيم الهامة، تام الألواح، أسجح الخدين، ولرب مسترخى المذورين، للعين فيه مراد قد جلس من الفتاة حجرة، وجلست منها حيث أريد".

وقال كوفى "مررت ببشار وهو منبطح فى دهليزه كأنه جاموس فقلت له يا أبا معاذ من القائل:

فى حلتى جسم فتى ناحل لوهبت الريح به طاحا".

قال أنا. فقلت "والله إنى لأرى أن لو بعث الله الرياح التى أهلك بها الأمم الخالية ما حركتك من موضعك" قال "يا أهل الكوفة ما تدعون ثقلكم ومقتكم على كل حال!".

على أنه لم يكن يخفى عليه أنه قبيح الوجه مشنوء المنظر. قالت له امرأة "ما أدرى لم يهابك الناس مع قبح وجهك" فقال لها "ليس من حسنه يهاب الأسد".

وكرر هذا المعنى فى شعره فقال:

ولى المهابة فى الأحبة والعدا وكأننى أسد له تامور[1]

غرثت حليلته وأخطأ صيده فله على لقم الطريق زئير

ويؤخذ من أخباره أنه لم ينفرد بضخامة الجثة، وطول القامة، وأن أخويه كانا مثله جسامة، فقد روى أنه كان له أخوان يقال لأحدهما بشر، وللآخر بشير، وكانا قصابين. وكان بشار بارا بهما، وكان أخواه يستعيران ثيابه فيوسخانها وينتنان ريحها، فاتخذ قميصا له جبيبان وحلف ألا يعيرهما

---

(١) التامور: العرين.

ثوبا من ثيابه، فكانا يأخذانها بغير إذنه، فإذا دعا بثوبه فلبسه فأنكر رائحته قال "أينما أتوجه ألقى سعدا" وهو مثل يضرب لمن يلقى سوء المعاشرة فى كل مكان، فإذا أعياه الأمر خرج إلى الناس فى تلك الثياب، على نتنها ووسخها، فيقال له "ما هذا يا أبا معاذ؟ "هذه ثمرة صلة الرحم".

فلولا أنهما مثله طولا وعرضا لما صلحت ثيابه لهما.

وكان يكنى أبا معاذ ويلقب بالمرعث. وزعم بعضهم أنه إنما سمى المرعث لقوله:

قال ربم مرعث ساحر الطرف والنظر

لست والله نائلى قلت أو يغلب القدر

وزعم آخرون أنه إنما لقب بالمرعث لأنه كان فى أذانه وهو صغير رعاث أى قرطة - ولعل هذا أصح تعليل وأقربه إلى الصواب.

على أن هناك من يزعم أنه إنما سمى المرعث لأنه كان لقميصه جيبان جيب عن يمينه، وجيب عن شماله - فإذا أراد لبسه ضمه عليه من غير أن يدخل رأسه فيه، وإذا أراد نزعه حل أزراره وخرج منه، فشبهت تلك الجيوب بالرعاث لاسترسالها وتدليلها، وسمى من أجلها المرعث

وهذا تعليل لا يخفى ما فيه من التكلف الشديد.

وقد لهج بشار منذ حداثته بالهجاء، وكان وهو صغير يهجو الناس فيجيئون إلى أبيه، فيشكونه، فيضربه ضربا شديدا على حبه له، فكانت أمه تقول "كم تضرب هذا الصبى!.. أما ترحمه؟." فيقول "بلى والله إنى لأرحمه ولكنه يتعرض للناس فيشكونه إلى".

قالوا فسمعه بشار فطمع فيه فقال له "يا أبت! إن هذا الذى يشكونه منى إليك هو قول الشعر، وإنى إن ألممت عليه أغنيتك وسائر أهلى، فإن شكونى إليك فقل "أليس الله يقول "ليس على الأعمى حرج..." فلما عاودوا شكواه قال لهم برد ما قاله بشار، فانصرفوا وهم يقولون "فقه برد أغيظ لنا من شعر بشار".

ويظهر من هذا الخبر - إذا صح - إن بردا كانت فيه سذاجة وجهل، فما كانت شكوى الناس من بشار لأنه يقول الشعر، بل لأنه يبسط لسانه فيهم، وقد أطاع غلامه ورد على الشاكين بما لقنه، وكف عن ضربه بعد أن كان يقسو عليه ويوجعه، ولعه طمع فيما وعده من الغنى، وقد كان برد يستبشر ببشار ويقول عنه "ما رأيت مولودا أعظم منه بركة، ولقد ولد لى وما عندى درهم، فما حال الحول حتى جمعت مائتى درهم"

على أن بردا لم يطل به العمر حتى يدرك الغنى الموعود، فقد جاء فى خبر أن بردا لم يمت حتى قال بشار الشعر. والمعروف أنه قاله وهو صغير، ولا جديد فى هذا الخبر إلا ما يدل عليه ضمنا من أن بردا وافاة الحين وبشار فى صدر حياته.

ولسنا نعرف عن أمه شيئا - حتى ولا اسمها، وأكبر الظن أنها ماتت وبشار فتى. فما يرد لها ذكر إلا فى أخبار حدائته.

[٣]

وكان مولد بشار على ما هو مرجح فى سنة ٩٥هـ أى فى آخر سنة من خلافة الوليد بن عبد الملك. وشب فى عهد سليمان بن عبد الملك، وابن عمه عمر بن عبد العزيز - ثانى العمرين - ويزيد بن عبد الملك وأخيه هشام، والوليد الثانى، ويزيد بن الوليد الأول، وإبراهيم أخيه - إلا إذا أسقطناهم من عداد الخلفاء لقصر عهده واقتصاره على دمشق وضواحيها - ومروان الثانى آخر بنى أمية. وقد سقطت دولتهم فى سنة ١٣٢هـ وكان بشار حينئذ فى العقد الرابع من عمره، وكان له حوالى ربع قرن وهو يقول الشعر، ومع ذلك لم يبق لنا إلا أقل من القليل من أخباره وشعره فى العهد الأموى ولعل ما كان يتكسب به منه، وقد طوى بعد أن جاء العباسيون.

من هذا القليل الباقى بائيته المشهورة فى مدح ابن هبيرة - وهى التى يقول فيها:

إذا كانت فى كل الأمور معاتبا صديقك، لم تلق الذى لا تعاتبه

فعش واحدا أوصل أخاك فانه مقارف ذنب مرة ومجانبه

إذا أنت لم تشرب مرارا على القذى ظمئت، وأى الناس تصفو مشاربه

ومنه أيضا قصيدة مدح بها سليمان بن هشام بن عبد الملك وقال فيها:

أغر هشامى القناة إذا انتمى نمته بدور ليس فيهن كوكب

فوصلة بخمسة آلاف درهم فلم يرضها واستقلها وانصرف مغضبا وهجاه بأبيات قال فى آخرها:

فاكحل بعبدة مقلتيك من القذى وبوشك رؤيتها من الهملان

فلقرب من تهوى وأنت متيم أشقى لدائك من بنى مروان

ورجع إلى العراق فبره ابن هبيرة ووصله، وكان يعظم بشارا ويقدمه لمدحه قيسا وافتخارا بهم(١).

وقد يستدل على رأيه فى الدولتين جميعا: الأموية والعباسية - بعد هذه القصيدة - بقصيدته الميمية التى يقال إنه هجا فيها أبا جعفر المنصور ثانى الخلفاء العباسيين، ثم خاف وغير ما فيها وبدل وأظهر أنه كان قالها فى أبى مسلم الخراسانى، وأولها:

أبا جعفر ما طول عيش بدائم ولا سالم عما قليل بسالم

فقلب هذا البيت فقال "أبا مسلم":

على الملك الجبار يقتحم الردى ويصرعه فى المأزق المتلاحم

كأنك لم تسمع بقتل متوج عظيم، ولم تسمع بفتك الأعاجم

تقسم كسرى رهطه بسيوفه وأمسى أبو العباس أحلام نائم

يعنى الوليد بن يزيد، وكان خليعا مسفا فثار عليه يزيد بن الوليد الأول واقتحم الثوار عليه القصر واحتزوا رأسه:

---

(١) كان يزيد بن هبيرة أمير العراق من قبل الأمويين. فلما جاء العباسيون ضيقوا عليه فى واسط فحاول أن يثير عبد الله بن الحسن أحد أحفاد الامام على ويحضه على جمع خصوم العباسيين حوله. ثم يئس، فعرض الطاعة مشترطا الأمان لنفسه وأتباعه ولكن أبا مسلم أشار بقتله وألح فى ذلك فقتل.

وقد كان لا يخشى انقلاب مكيدة عليه، ولا جرى النحوس الأشائم
مقيما على اللذات حتى بدت له وجوه المنايا حاسرات العمائم
وقد ترد الأيام غرا وربما وردن كلوحا باديات الشكائم
ومروان قد دارت على رأسه الرحى وكان - لما أجرمت - نزر الجرائم
فأصبحت تجرى سادرا فى طريقهم ولا تتقى أشباه تلك النقائم
تجردت للإسلام تعفو سبيله وتعرى مطاه لليوث الضراغم
فما زالت حتى استنصر الدين أهله عليك فعاذوا بالسيوف الصوارم

ولعله يشير إلى ثورة عبد الله بن على، على المنصور، وكان عاملا على الشام فنادى بالبيعة لنفسه فأنفذ إليه المنصور جيشا على رأسه أبو مسلم الخراسانى فهزمه بالقرب من نصيبين.

فرم وزرا ينجيك يابن سلامة فلست بناج من مضيم وضائم

جعل موضع "يابن سلامة" "يابن وشيكة" وهى أم أبى مسلم

لحا الله قوما رأسوك عليهم وما زلت مرءوسا خبيث المطاعم
أقول لبسام، عليه جلالة غدا اريحيا عاشقا للمكارم
من الفاطميين الدعاة إلى الهدى جهارا، ومن يهديك مثل ابن فاطم

هذا البيت يقال إنه خافه فخذفه من القصيدة

سراج لعين المستضىء، وتارة يكون ظلاما للعدو المزاحم

وقد هجا المهدى وحرض عليه الأمويين الذين هجاهم فقال:

بنى أمـيــة هبــوا طال نومـكم　　إن الخليـفــة يعـقــوب بن داود

وكان وزير المهدى

ضاعت خلافتكم يا قـوم فالتمسوا　　خليــفــة الله بين الـزق والعــود

وما نظم أن أحدًا سـيزعم أن بشارا كان يتـشيع، فقد كـان رجلا حولا قلبـا لا يعنيه إلا مـا يرجو أن يصـيبه من خـير أو يدفـعه من شـر. واتهم بالزندقة، وقـيل فيه إنه بقى مـتحيـرا مخلطا، على أن هذا بحث نرجـئه إلى موضعه من الكتاب.

❊ ❊ ❊

obeikandl.com

[٤]

فقال "إنى وجـدت الهجاء المؤلم آخذ بضبع الـشاعر من المديح الرائع، ومن أراد من الشعراء أن يكرم فى دهر اللئام على المديح فليستعد للفقر، وإلا فليبالغ فى الهجاء فيعطى"

وقد مر بك قـوله لأبيه "إنى إن ألمت عليه (أى الشعـر أغنيتك وسائر أهلى فـإن شكونى إليك فـقل لهم أليس اللـه يقـول ليس علـى الأعـمى حرج.."

فهـو كان يهجو الـناس ويبسط لسانه فـيهم، ويشنع عليهم، ليـرهبهم ويخفيـهم ويظفر بمالهم، أو يبتزه على الأصح، فيعـيش مترفا منعمـا موسعا عليه، ومتـقى، مخشى اللسان. وإذ كان على ضـخامة جثته؛ ومـتانة أسره، وشدة بنيانه، لا يستطيع أن يكون فاتكا، لما منى به من العمى، فقد اتخذ من لسانه أداة للفتك والبطش، ووسـيلة إلى استشعار القوة، وإفـادة العزة. قالت له بنته مرة "يا أبت. مالك يعرفك الناس ولا تعـرفهم." قال: "هكذا الأمير يا بنية".

ولم يكن ولوعـه بالهجـاء والتقـحم على الناس بالشتـم، لحقد دفـين ينطوى عليه، وعداوة كامنة يمسكها فى قلبه، وضراوة طبيعية بالشر، بل لأنه كان يشعر بالنقص من ناحيتين: أنه كفيف وإنه من الموالى، فلا يزال من أجل هذا يعالج أن يعوضـه إذ كان لا يملك أن يغير ما به، فـما إلى رد بصره من سبيل، ولاثم حيلة يعرفها هو أوسواه يخرج بها من طبقة الموالى سوى ما كان من تحريضـة لهم على ترك الولاء، وفى طبـاع الإنسان أن يستـر ضعـفه، أو

يحاول أن يفيد عوضا عما حرمه أو فقده. ولما كان بشار قوى البدن موفور الصحة وكان إلى هذا عالى اللسان فقد أغراه ذلك بالتماس العوض الميسور وهو إفادة القوة الأدبية وإشعار نفسه والناس قدرته على البطش المعنوى الذى سدت عليه سبيله المادية.

وفيما بقى من شعره وأخباره الدليل على شدة شعوره بعماه، فقد كان كثير الذكر له فى شعره وكلامه، وقد تقدم بعضه، ومن ذلك أيضا قوله:

يا قوم أذنى لبعض الحى عاشقة ... والأذن تعشق قبل العين أحيانا
قالوا بمن لا ترى تهذى فقلت لهم ... الأذن كالعين توفى القلب ما كان

وقوله:

وكاعب قالت لأترابها ... يا قوم ما أعجب هذا الضرير
هل يعشق الانسان من لا يرى ... فقلت، والدمع بعينى غزير
إن تك عينى لا ترى وجهها ... فإنها قد صورت فى الضمير

وقوله:

بلغت عنها شكلا فأعجبنى ... والسمع يكفيك غيبة البصر

وقوله:

عجبت فطمة من نعتى لها ... هل يجيد النعت مكفوف البصر

وقوله:

يزهدنى فى حب عبدة معشر ... قلوبهم فيها مخالفة قلبى
فقلت دعوا قلبى وما اختار وارتضى ... فبالقلب لا بالعين ذو اللب

وما تبصر العينان فى موضع الهدى ولا تسمع الأذنان إلا من القلب

وحكوا عنه أنه سأل صانعا أن يصنع له جاما فيه صور طير تطير فجاءه بما طلب. فسأله بشار عمار فيه فقال الرجل "صور طير تطير" فقال بشار "كان ينبغى أن تتخذ فوق هذه الطير طائرا من الجوارح كأنه يريد صيدها فإنه كان أحسن" قال الرجل "لم أعلم" قال بشار "بلى قد علمت. ولكن علمت أنى أعمى لا أبصر شيئا".

وحتى فى هذه الحكاية يريد بشار أن يكون فى الصورة طائر من الجوارح يهم أن ينقض على طير ضعاف.

وعسى أن تكون الحكاية مخترعة. فما ثم ما يعين على الجزم بالصحة أو الكذب، وخاصة لأن الرجل كثر التشنيع عليه والتسميع فيه والكراهة له. فإن تكن صحيحة فهى مما يشى بالتفات ذهنه إلى عماه - كما هو طبيعى - وإن تكن موضوعة فهى آية على إدراك واضعها لحالة بشار النفسية وتأثره بعماه. ومن مغالطة نفسه قوله "الحمد لله الذى ذهب ببصرى" فقيل له "ولم يا أبا معاذ" قال "لئلا أرى من أبغض" فإنه إذا كان قد أعفى من رؤية من يبغض، فقد حرم رؤية من يحب وما يحب.

وهجاه أبو هشام الباهلى بشعر قبيح لا يروى وغيره بعماه وقالوا "ولم يزل بشار مذ قال فيه هذين البيتين منكسرا".

ورفع غلام بشار إليه فى حساب نفقته جلاء مرآة عشرة دراهم فصاح به بشار وقال "والله ما فى الدنيا أعجب من جلا مرآة أعمى بعشرة دراهم. والله لو صدئت عين الشمس حتى يبقى العالم فى ظلمة ما بلغت أجرة من يجاوها عشرة دراهم".

وهى صيحة لا داعى لها، والتناسب بينها وبين الباعث عليها مفقود. وما كانت هذه مرآة أعمى، فما بالأعمى حاجة إليها، وإنما كانت مرآة جاريته أو امرأته، ولكنه زج بنفسه وأدخلها فى الأمر لفرط إحساسه بعماه وسيطرة هذا الإحساس على وجدانه، وجرى بباله أن الغلام يكذب عليه ويخدعه لأنه ضرير.

ومما يجرى مجرى الخبر الأسبق أن صديقا له قال له وهو يمازحه "إن الله لم يذهب بصر أحد إلا عوضه بشىء. فما عوضك..؟" قال "الطويل العريض" قال "وما هذا؟" قال "ألا أراك ولا أمثلم من الثقلاء" ثم قال "يا هلال، أتطيعنى فى نصيحة أخصك بها؟" قال "نعم" قال "إنك كنت تسرق الحمير زمانا، ثم تبت وصرت رافضيا، فعد إلى سرقة الحمير، فهى والله خير لك من الرفض".

فهو كما ترى حساس جدا من هذه الناحية، وصبره قليل، وغضبه يستشرى.

وكان يحرص على أن يبدى للناس ذكاء قلبه، وإنه لم ينقص بالعمى شيئا. قالوا "مر ابن أخى بشار به ومعه قوم، وقال بشار لرجل معه "من هذا؟" قال "ابن أخيك" قال "أشهد أن أصحابه أنذال" قال "وكيف علمت؟" قال "ليست لهم نعال".

على أنه لا حاجة بنا إلى الشواهد من الشعر والنثر والأخبار. فما يسع إنسانا إلا أن يشعر بما رزق أو حرم. ولعل الشعور بالحرمان أقوى وأبلغ وأعظم أثرا فى النفس. والعين أكثر الجوارح غناء، وأوثقها اتصالا بالعقل والنفس، ألم يقل البحترى "ولكن رأيت العين بابا إلى القلب!." وهى أقوى

"حاسة اجتماعية" وأكثر المجازات فى هذا الباب مستمدة من إحساساتها، والمرء عنها أفهم، وبها أقوى وأقدر، وعسير أن يغنى غيرها غناءها، كما يشق أن تكفى هى مكان سواها فإن لكل جارحه عملها، كما يقول ابن الرومى:

هل العين بعد السمع تكفى مكانه أو السمع بعد العين يهدى كما تهدى؟

وإن كان من المعقول إذا تعطلت جارحة أن تقوى الأخرى, أو كما يقول بشار نفسه "إن عدم النظر يقوى ذكاء القلب، ويقطع عنه الشغل بما ينظر إليه من الأشياء فيتوفر حسه، وتذكر قريحته[1]".

وبديهى أن بشارا لم يكن يدرك قيمة ما حرم إلا من الناحية العملية، بما يحصل فى ذهنه من المقارنة بين حاجته واستغناء غيره، وعجزه واقتدارهم، وتقيده وحريتهم، أما قيمة النظر وجداره فى إفادة الصور والمعانى فأمر نشك فى أنه كان يدركه على حقيقته، أو يفهمه ويعرفه إلا توهما وتخيلا، لأن معرفة هذا لا تكون إلا بالتجربة والمعاناة، وهو قد ولد مكفوفا فليس فى وسعه أن يقيس ما صار إليه من الحرمان إلى ما كان ينعم به من المزية، ولا أن ينتفع بما سبق له من القدرة على النظر فيستعين بذلك على إفادة المعانى والصور على نحو ما يفيدها البصير. على أنى أحسب أن هذا لا قيمة له وأن المهم أن تحصل المعانى والصور فى الذهن، لا كيف تحصل، والفرق بين البصير والكفيف فى هذا هو فرق فى طريقة حصول الصور والمعانى، فيها ذاتها، وكل منهما يتمثلها على النحو الذى تيسره الأداة التى له، والمهم كما قلت هو هذا التمثل لا طريقته ووسيلته.

---

(١) شبيه بهذا قول القاسم بن محمد وفد قيل له "سلبت أحسن وجهك" فقال "صدقت، غير أنى منعت النظر إلى ما يلهى وعوضت الفكرة فيما يجدى"

وقد سئل بشار كيف يشبه الأشياء بعضها ببعض فى شعره وهو لم ير الدنيا قط ولا شيئا فيها، فأجاب بما نقلنا من أن عدم النظر يقوى ذكاء القلب ويقطع عنه الشغل بالمرئيات، ولو شاء لقال أن اللغة ليست أكثر من أداة للتعبير عن المعانى والخواطر والخوالج، وإن المرء يتلقاها عن الجماعة التى هو فيها كما يتلقى النسيم الذى يستشقة، بلا تفكير أو عناء أو جهد من جانبه. محسوس. ويتلقى مع اللغة قواليها وتشبيهاتها ومجازتها واستعارتها وأسلوبها فى التشبيه، ونحوها فى المجاز، ووجهتها فى الاستعارة، ودلالات الألفاظ مفردة ومؤلفة. وترتسم فى ذهنه، بطريقة ما، الصور التى تستفاد من هذا التأليف، ولا يمنعه العمى أن يفيد الصور والمعانى المتداولة أو التى يمكن تمثلها. والأبكم حكمه حكم الأعمى فى أنه لا يتلقى أداة التعبير عن المعانى كما يتلقاها الناطق السميع. وإنه ليتخذ أداة غير اللغة ولا صلة لها بها. ومع ذلك يتمثل المعانى ويؤديها بأداته الخاصة به، ويفهم الناس مراده، ويفهم عنهم، ولا يمنع ذلك أو يعطله اختلاف الواسطة. ومعظم الناس - إذا آثرنا القصد والحيطة ولم نقل الناس جميعا - يأخذون اللغة بألفاظها وقواليها، ويستخدمونها، ولا يجعلون بالهم إلى حقيقة معانيها الأصلية، فتسمع الواحد يقول أو يكتب أن السيف قد سبق العدل، وهو يفهم من هذا التعبير. ويفهم الناس عنه، أن الأمر قضى، وإنه لا سبيل إلى إصلاح ما وقع، ولا بقيت فائدة من الكلام. ولكنه لا يعرف - ولا يعرف السامعون أو القارئون فى الأغلب والأعم - أصل هذا المثل ومعناه الحقيقى حين جرى به لسان مرسله. وعسى أن لا يكون القائل والسامع، أو الكاتب والقارئ؛ وقد أبصرا فى حياتهما سيفا. ولعلهما لم يعينا قط بأن يسألا عن العدل ما هو وما معناه. فهذا المثل حين يستعمل ليس أكثر من عبارة موروقة مقررة، أو قالب

مصبوب، يقرأه أو يسمعه المرء فيعرف أنه يدل على معنى معين، وقد تلقف هذا المعنى عن الناس، وتلقفه الناس جيلا عن جيل. وهذه هى الطريقة الطبيعية التى يتلقى بها الناس اللغة, وهل تظن أن الطفل الذى تعلم بأذنه محاكاة الأصوات التى يسمعها، وإدارة اللسان بها، يفهم معانيها كفهم الكبار لها؟ أليس كل ما يعرفه هو أن الصوت الذى تحدثه كلمة (كرة) حين ينطق بها الكبير، هو الصوت الذى ينبغى أن يحدثه هو إذا أراد أن يطلب الكرة، أو يسأل عنها أين اختفت؟ فالألفاظ، مسموعة أو مرسومة، ليست سوى رموز للأشياء والمعانى، والمرء يستفيد العلم بهذه الرموز والقدرة على استخدامها، على الأيام، وبالتقليد والمحاكاة، ويستطيع أن يستغنى عنها، إذا امتنعت الوسيلة إليها، برموز أخرى يتخذها هو كما يفعل الأخرس، والنتيجة واحدة، وإن اختلفت الرموز، وتباينت الواسطة فى الفهم والإفهام.

ولكن بشارا فقد حاسة "اجتماعية" نفيسة لا يسعه إلا أن يشعر بفقدها فى عالم المبصرين، فلا مفر من أن يكون لفقدها أثر فى مزاجه وروحه والتفاتات ذهنه. فما يستوى أن تكون للمرء، وأن لا تكون له، هذه الجارحة. وأكبر الظن أن فقدها أورثه بعض المرارة، وقوى استعداده للتمرد. وهذا الاستعداد يكون طبيعيا وليس مما يكتسب، ولكنه فى بشار وجد عونا على الظهور السريع، من ضعة أهله وحقارة منبته - فى عالم لا يزال الناس فيه مع الأسف طبقات متفاوتة الأقدار - ومن هذه الآفة التى متى بها "جنينا" ثم من دمامته الشديدة التى كان يعير بها، ثم من كونه فارسيا غلب وطنه على أمره، ثم استعلى قومه فى دولة بنى العباس وأخيرا من عصره الذى مال به إلى حرية الارتياء وإلى التمرد على الموروث من الآراء والعقائد، وإلى النزوع إلى الاجتهاد.

والمرء يقرأ هذا الخبر "دخل يزيد بن منصور على المهدى، وبشار بين يديه ينشده قصيدة امتدحه بها، فلما فرغ منها أقبل عليه يزيد بن منصور الحميرى - وكانت فيه غفلة - فقال له "يا شيخ ما صناعتك؟" قال "أثقب اللؤلؤ" فضحك المهدى ثم قال لبشار "اغرب ويلك.. أتتنادر على خالى؟" قال "وما أصنع؟ يرى شيخا أعمى ينشد الخليفة شعرا ويسأله عن صناعته.."

يقرأ المرء هذا الخبر فيستظرفه ويبتسم، ولكنه يشعر بما فقى رد بشار من مرارة خفيفة، ومن أدراك لكونه بالعمى محدود الطاقة، وإنه لمحدود مصروف عن كثير مما يزاوله المبصرون. ولكنه رزق العوض الكافى، وليس الذى أرغم على تركه بالذى له قيمة تذكر. ولشد ما يتمنى المبصرون لو أنهم رزقوا ما رزق، وفيما لقى فى حياته من الكرامة وفاز به من الوجاهة والتقديم دليل على أنه لم يخسر شيئا كان يمكن أن يفيد أكثر منه بالبصر. ولكن المزاج لا يخضع للمنطق، ولا يجئ على مقتضى الموازنة بين الربح والخسارة. والطبيعة تجرى مجراها بلا نظر إلى هذا وذاك. وقد كانت نفس بشار لا تخلو من مرارة ونقمة من أيام حداثته. وليس من العسير الاهتداء إلى بعض الأسباب التى أثرت فى نفسه وقوت استعداده وقد أسلفنا الإشارة إليها، ولكن الخلق هو العلة الكبرى، والواقع على كل حال أن بشار لم يزل مذ قال الشعر فى حداثته يركب الناس بالهجاء لسبب ولغير سبب، حتى لقد كان يتفكه به، ويعد إفحاشه فيه من دواعى السرور التى لا يعقل أن تسوء أحدا. وكان يضحك من أصدقائه حين يقول فيهم شرا فيعلنونه أو يعاتبونه، كالذى حكوه من أن حمارا نهق ذات يوم بقرب فخطر له بيت سو لا فقال بشار "فى.. تسنيم" فقال له تسنيم "أيش ويحك..؟"

فأنشده البيت الذى صار مقولا فيه. فقال له "عليك لعنة الله! فما عندك فرق بين صديقك وعدوك. أى شىء حملك على هذا؟ ألا قلت "فى.. حماد" الذى هجاك وفضحك وأعياك؟ وليست قافيتك على الميم فأعذرك" قال "صدقت والله فى هذا كله. ولكنى ما زلت أقول "فى... من.. فى.... من.. ولا يخطر ببالى أحد حتى مررت وسلمت فرزقته" فقال له تسنيم "إذا كان هذا جواب السلام عليك، فلا سلم الله عليك، ولا على حين سلمت عليك" وجعل بشار يضحك ويصفق بيديه، وتسنيم يشتمه..

والحقيقة التى تدل عليها أخباره أنه اتخذ من الهجاء وسيلة إلى القوة والنفوذ والوجاهة والغنى؛ كما أراد فى حداثته أن يحمل جريرا على مهاجاته ليعظم شأنه. والهجاء فى الباقى من شعر بشار كثير. وهو إلى كثرته شنيع يسف فيه ويفحش على نحو لم يكن مألوفا من قبل. وما ترك واحدا حتى هجاه. ولم يسلم من لسانه حتى الخلفاء وإن كان خوفه من البطش به قد حمله على كتمان بعضه أو توجيهه وجهة أخرى - كما رأيت فيما مر بك من قصيدته فى أبى جعفر المنصور التى غير فيها وبدل وحذف وصرفها إلى أبى مسلم ولكنه نسى أن يسقط منها هذا البيت:

وحارب إذا لم تعط إلا ظلامة شبا الحرب خير من قبول المظالم

فى تحريض واحد من الرعية على ملك أو سلطان، وهو الأصل فى القصيدة، ولعله أسقطه ونسى الرواة أن يذكروا ذلك. وما كانت ثورة عبد اللة بن على، على أبى مسلم بل على المنصور، ولا كان أبو مسلم هو المرأس وإنما كان المنصور هو المرأس فمعانى الهجاء كلها منصرفة إلى الخليفة.

وكان تسوره على الناس، كبارهم وصغارهم، وأعدائه منهم والأصدقاء، والمحسنين إليه والمسيئين، سببا فى تبغيضه إليهم فخافوه وكرهوه وشتموا به لما قتل ضربا بالسياط.

وعلى فرط اجترائه على الناس بالهجاء، وتناولهم بالسبب القبيح، والذم الوجيع، كان فى أبى معاذ جبن وذلة.

قال أحد رواة شعره – فقد كانوا كثرا – "جئت بشارا ذات يوم فحدثنى قال: ما شعرت منذ أيام إلا بقارع يقرع بابى مع الصبح فقلت: يا جارية انظرى من هذا. فرجعت إلى وقالت هذا مالك بن دينار[1] فقلت: ما هو من أشكالى ولا أضرابى. ثم قلت: ائذنى له، فدخل فقال، يا أبا معاذ أتشتم أعراض الناس وتشبب بنسائهم؟، فلم يكن عندى إلا أن دفعت عن نفسى وقلت لا أعود.. فخرج عنى".

وحكوا عنه أنه هجا روح بن حاتم[2] فبلغه ذلك فقذفه وتهدده. فقال بشار فيه:

تهددنى أبو خلف ... وعن أوتاره نام

بسيف لأبى صفرة ... لا يقطع ابهاما

كأن الورس يعلوه ... إذا ما صدره قاما

---

(١) مالك بن دينار البصرى من رواة الحديث كان ورعا يأكل من كسبه ويكتب المصاحف بالأجرة.

(٢) روح بن حاتم بن قضيبة بن الملهب الأزدى أمير من الأجواد ولاه المهدى السند ثم البصرة ثم الكوفة وولاه الرشيد على القيروان.

فبلغ ذلك روحا فقال: كل مالى صدقة إن وقعت عينى عليه لأضربنه ضربة بالسيف ولو أنه بين يدى الخليفة. فبلغ ذلك بشارا فقام من فوره حتى دخل على المهدى فقال له: ما جاء بك فى هذا الوقت.؟ فأخبره بقصة روح وعاذ به منه. فقال المهدى: يا نصير! وجه إلى روح من يحضره الساعة. فأرسل إليه فى الهاجرة وكان ينزل فى المحرم[1] فظن هو وأهله أنه دعى لولاية، قال: يا روح إنى بعثت إليك فى كل حاجة. فقال له أنا عبدك يا أمير المؤمنين فقل ما شئت سوى بشار فأنى حلفت فى أمره بيمين غموس. قال: قد علمت، وإياه أردت. قال فاحتمل ليمينى يا أمير المؤمنين. فأحضر القضاة والفقهاء، فاتفقوا على أن يضربه ضربة على جسمه بعرض السيف. وكان بشار وراء الخيش (مراوح من الكتان) فأخرج وأقعد. واستل روح سيفه فضربه ضربة بعرضة. فقال أوه، باسم الله.. فضحك المهدى وقال له: ويلك.. هذا وإنما ضربك بعرضه فكيف لو ضربك بحده."

وقرع بابه يوما عنيفا فقال "ويحك يا غلام! انظر من يدق الباب دق الشرط!"

ولسنا نرى أن هذا يزرى به، فقد كان على كل تجبره وقعوده للسباب مسكينا. ولكن المرء لا يسعه إلا أن يبتسم حين يرى اشفاقة فى مجلس الخليفة من أن يغلط روح - أو يتعمد الغلط - فيضربه بجد السيف.

وكان على استهتاكه لا يخلو من حذر مرجعه إلى الخوف لا إلى الاحتشام.

كان لبشار نديم ما جن مثله فقال له يوما "يا أبا معاذ.. لقد نسبنا

---

(١) محلة كانت ببغداد بين الرصافة ونهر المعلى.

الناس إلى الزندقة فهل لك أن تحج بنا حـجة تنفى عنا ذلك. ؟" قال "نعم ما رأيت" فاشتر يا بعيرا فركبا - فلما مرا بزرارة (محلة بالكوفة) قال له "ويحك يا أبا معاذ! ثلاثمائة فرسخ متى نقطعـها؟؟ مل بنا إلى زرارة نتنعم فيها، فإذا قفل الحجـيج عارضناهم بالقادسية (قرب الـكوفة) وجززنا رؤوسنا فلم يشك الناس أنا جئنـا من الحج" فقال له بشـار "نعم ما رأيت لولا خـبث لسانك! وإنى أخاف أن تفضـحنا" قال "لا تخف" فمالا إلى زرارة فـما زالا يشربان الخمر ويفسقان، فلما نزل الحاج بالقادسية راجعين، أخذا بعيرا ومحملا وجزا رؤوسهما وأقبلا وتلقاهما الناس يهنئونهما"

وقد صدق ظن بشـار، وكان ما خاف أن يكون، فـقد فضحه صـاحيه بهذه الأبيات:

ألم تـرنى وبشـــارا حـــجـجـنا وكـان الحج من خـيـر التـجـارة

خــرجنا طـالبى سـفــر بعـيـد فــمــــال بنـا الطريـق إلى زراره

وآب الناس قـــدْ حـجــوا وبروا وأبنا مــوقــريـن من الخـســـاره!

وكان دقيق الإحساس بما يعرضـه للسخرية والهزؤ. قالوا إنه كان يعطى أبا الشمـشمق فى كل سنة مائتى درهـم، فأتاه أبو الشمـقمق فى بعض تلك السنين فقال له "هلم الجزية يا أبا معـاذ" فقال "ويحك. أجزية هى؟؟" قال "هو مـا تسمع". فـقال بشار يـمازحه "أنت أفـصح منى؟" قـال "لا" قال "فأعلم منى بمثالـب الناس؟" قال "لا" قال "فأشعـر منى؟" قال "لا" قال "فلم أعطيك؟ قـال "لئلا أهجـوك" قال "إن هجوتـنى هجوتك" فـقال أبو الشمشق "هكذا هو؟" قال "نعم، فقل ما بدلك" فقال أبو الشمقمق:

obeikandl.com

إني إذا ما شاعر هجانيه ولج في القول له لسانيه

.... علانيه بشار يا بشار يا ابن....

وأراد أن يقول "يا بن الز . . ." فوثب بشار فوثب بشار فاه، وقال "أراد والله أن يشتمني!" ثم دفع إليه مائتي درهم وقال له "لا يسمعن هذا منك الصبيان، يا أبا الشمقمق"

في مرة أخرى علم أبو الشمقمق الخبيث أن بعضهم وصل بشارا بعشرة آلاف درهم، فوافاه وقال له "يا أبا معاذ. إني مررت بصبيان فهمعتهم. ينشدون:

هلليله! هلليله طعن قثاة لتينه

إن بشار بن برد تيس أعمى في سفينه

فأخرج إليه بشار مائتي درهم وقال "خذ هذه ولا تكن رواية الصبيان يا أبا الشمقمق!"

وما كان الذي خافه بشار الشتم، بل ما هو شر منه: أن يجتمع عليه الصبيان في الطريق ويزفوه بهذه الأبيات السهلة الجرى على اللسان. وله العذر. وحكاية مشهورة مع البصري الذي صنع له جاما فيه صور طير تطير فعابه بشار وتهدده بالهجاء. فقال له الرجل "لا تفعل فانك تندم" فسأله بشار "أي شيء تستطيع أن تصنع بي إذا هجوتك؟" قال أصورك على باب داري بصورتك هذه وأجعل من خلفك قردا حتى يراك الصادر والوارد" فقال بشار "اللهم اخزه! أنا أمازحه وهو يأبى إلا الجد".

وهكذا تعلم بشار أن اللسان ليس بالأداة الوحيدة للثلب والتشهير، وإنه رب صورة كانت أقتل من مائة قصيدة سيارة.

[٥]

وسئل بشار "أى متاع الدنيا آثـر عندك؟" قال "طعام مز، وشراب مر، وبنت عشرين بكر"

وقال فى شعره:

من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

وفى كلمته هذه، وفى شعـره، تتمثل سيرته. فمـا كان الشعر عنده إلا وسيلة للجاه، وبسطه العيش، والوقوع فى الرغد ونعيم الحياة، والاستمتاع بما يفـيده شـعـره من التعظيم إذ لـم يكن له قديم يرجـع إليه. وكـان الناس لا ينفكون يعيرونه بأنه من الوالى وأن أصله غير مـعروف وفرعه غير زاك. فكان لا يقدر أن يقـول لهم فى الرد عليهم إنه أكرم منهم، أو مثلـهم كرم أصول، ويكتـفى بأن يزعم أنه أكـرم أصـلا من الذهب وأن فـرعـه أزكى من عـمل الأبرار.

وكان عمه أن يغـتنم كل ما يسعه اغتنامه من فرص العـيش. شهد مرة مجلسا فقال لمن فيه "لا تصيروا مجلسنا هذا شعرا كله، ولا حديثا كله، ولا غناء كله، فـإن العيش فرص، ولكن غنـوا وتحدثوا وتاشدوا وتعـالوا تتناهب العيش تناهيا"

وكان هذا مـا يصنع. وكان له فى داره مجـلسان: مجلس يجلس فـيه بالغداة يسمـيه "التبردان" مجلس يجـلس فيه بالعشى اسمـه "الرقيق" وكان يعنى بطعامـه وشرابه، وكان النسـوة يدخلن إليه فى مجلسـه ليسمعن شـعره

ويحادثه، ويسأله بعضهن أحيانا أن يقول لهن شعرا ينحن فيه، وكان ربما عشق امرأة منهن من كلامها فيأمر غلامه أن يتبعها، ويعرفها محبته لها، أو يبعث إليها معه برقعة فيها شعر يقوله فيها - وكان بعضهن يدعونه إلى بيوتهن فيذهب وحده أو مع صديق له، وكان يحضر مجلسه أيضا من الرجال رواة شعره، وتلاميذه، والمتأدبون عليه، والمعجبون به، وغيرهم من أصحاب الكلام ومن إليهم من محبى الجدل والمنازعة، فبيته أبدا معمور كما قال

وممن كان يحضر مجلسه من المعروفين المشهورين الأصمعى، وخلف بن أبى عمر العلاء، وخلف الأحمر. ويقول الأصمعى إنه كان يشهدهما يأتيان إليه ويسلمان عليه بغاية التعظيم ويسألانه عما أحدث فيخبرهما وينشدهما فيكتبان عنه متواضعين له ثم ينصرفان عنه.

ومن تلاميذه ورواته سلم الخاسر. وقد غضب عليه بشار مرة فاستشفع بجماعة من إخوانه فجاءوا فى أمره فقال لهم "كل حاجة لكم مقضية إلا سلما" قالوا ما جئنا إلا فى سلم. ولابد من أن ترضى عنه لنا. فقال "أين هو الخبيث؟" قالوا "ها هو ذا!" فقام إليه سلم فقبل رأسه ومثل بين يديه وقال "يا أبا معاذ! خريجك وأديبك" فقال يا سلم. من الذى يقول:

من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

قال "أنت يا أبا معاذ. جعلنى الله فداءك." قال "فمن الذى يقول:

من راقب الناس مات غما وفاز باللذة الجسور

قال "خريجك يقول ذلك (يعنى نفسه) قال "افتأخذ معانى التى عينت بها وتعبت فى استنباطها، فتكسوها ألفاظا أخف من ألفاظى حتى يروى ما تقول ويذهب شعرى؟؟ لا أرضى عنك أبدا!"

فما زالوا يتضرعون إليه ويشفع له القوم حتى رضى عنه.

وقد حرصنا على سوق الخبر لندل به على ما كان لبشار فى زمانه من محل ومع تعظيم جلسائه له كان بعضهم لا يتحرج أن يعيره بأنه مولى. ومن ذلك أن خلفا الأحمر قبله مرة بين عينيه إعجابا باقتداره وإكبارا لتوفيقه وحسن تصرفه فقال له خلف بن أبى عمرو يمازحه - وما أثقله من مزاح - "لو كان علاثة ولدك يا أبا معاذ، لفعلت كما فعل، ولكنك مولى" فمد بشار يده فضرب بها فخذ خلف هذا وقال:

ارفق بعمرو إذا حركت نسبته فإنه عـــربى من قواقير

وكان أبو عمرو يغمز فى نسبه. فالحق أن بشارا كان له بعض العذر.. ومر به عباد بن عباد وهو شريف ثقة من العقلاء ومن حفاظ الحديث. فسلم عليه فقال بشار "وعليك السلام، أعباد؟" قال "نعم" قال "نى لحسن الرأى فيك" قال "ما أحوجنى إلى ذلك منك يا أبا معاذ"

ولم يكن ضنينا بالثناء والمعونة. وقد سبق من أخباره مع أبى الشمقمق ما فيه الكفاية. ولكن له معه خبر آخر يدل على سعة نفسه - فقد جاءه أبو الشمقمق مرة يشكو إليه الضيقة فقال له بشار "والله ما عندى شىء يغنيك. ولكن قم معى إلى عقبة بن سلم (وكان جوادا) فقام معه فذكر له أبا الشمقمق وقال "هو شاعر وله شكر وثناء" فأمر له بخمسمائة درهم، فقال بشار.

يا واحـــد العـــرب الذى أمـــسى وليس لـه نظيـــر

لو كـــان مـــثلك آخـــر ما كـان فى الدنيا فقـير

فأمر لبشار بألفى دينار. فقال له أبا الشمقمق "فنعتنا ونفعناك يا أبا

معاذ" فجعل بشار يضحك. وقد عرفت مما أسلفنا ذكره كيف كان بره بأخويه، وإن كان لا يكتم ضجره منهما ولا يترفع عن المفاخرة بعطفه عليهما والصبر على أذاهما. وقد يلحق بهذا بيتاه الفارغان المشهوران فى ربابة جاريته التى كانت تجمع له البيض من دجاجاتهما وتغنيه عن أكله من السوق.

ربابة ربة البيت تصب الخل فى الزيت

لها عشر دجاجات وديك حسن الصوت

وقد سرها البيتان فلم تزل تهتف بهما وتدندن.

وكان عظيم الاعتزاز بنفسه، يقول فى شعره "وهل على أمير؟"

نارى محرقة وبيتى واسع للمعتفين، ومجلسى معمور

ومعظم هذا حق. وجاءه أبو النضير الشاعر فأنشده قصيدة له فأثنى عليه بشار، فقال أبو النضير، كأنما أراد أن يستوثق من صدق السريرة فى هذا الثناء "لعلك حابيتنى يا أبا معاذ" فقال بشار "أنت - أبقاك الله - أهون على من ذلك"

وكان شعراء آخرون يقدمون البصرة وينشدون بشارا شعرهم ويستنصحونه فيشير عليهم ويتنبأ لهم. فإذا تعجب أحدهم من حدسه قال مازحا "أما علمت أنه لم يبق أحد أعلم بالغيب من عمك؟" وكان الأخفش وسيبويه يخافان لسانه ويتوقيانه ويجزعان أن يقع فيهما ولا يزالان يحتجان بشعره فى كتبهما استكفافا لشره. وبلغ من سيرورة شعره - غزله على الخصوص - أن استهتر به نساء البصرة - حرائرها وغيرهن - وشبانها حتى ضج الناس لذلك، وقال مالك ابن دينار أنه ما شىء أدعى لأهل هذه المدينة

إلى الفسق من أشعار هذا الأعمى. وقال واصل بن عطاء - بعد أن وقعت بينه وبين بشار النبوة - أن من أخدع حبائل الشيطان وأغواها لكلمات هذا الأعمى الملحد.

فلما كثر ذلك وانتهى خبره من وجوه كثيرة إلى المهدى نهاه عن ذكر النساء وقول التشبيب.

***

obeikandl.com

[٦]

وقد علمت أن بشارا نشأ بين الشيوخ من بنى عقيل، وفى حجور ثمانين منهم على قوله، ثم أخرج إلى البادية. فنشأته من هذه الناحية عربية خالصة. وهذا هو السبب فى سلامة عبارته، وجزالة أسلوبه، وحسن ديباجته، وجودة للكلام. وقد اتصل بأصحاب الكلام المعروفين فى زمانه حتى قيل أنه صار له - بعد فترة من التحير - رأى خاص. وقال الجاحظ أنه كان يدين بالرجعة إلى الدنيا، وإنه كان يكفر جميع الأمة. وما تظن إلا أنه عدل عن هذا التكفير بالجملة فقد هجا واصل بن عطاء وعابه به فقال فيه:

عنق الزرافة ما بالى وبالكم تكفرون رجالا كفروا رجلا؟

ولم تكن الفرق الإسلامية قد ظهرت كلها فى زمانه، ولكن بعضها كان قد ظهر قبل عهده، وبعضها فى زمانه، فكا هناك الخوارج، والشيعة، والمعتزلة، والزيدية أو الروافض على العموم، والمحمدية (التى تقول بانتظار محمد بن عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب. وتزعم أنه لم يمت وأنه حى فى جبل فى ناحية من نجد وأنه يقيم هناك إلى أن يؤذن له فى الخرج) والباقرية ويشهون المحمدية فى أنهم لا يصدقون أن محمد بن على بن الحسين الباقر قد مات، إلى آخر ذلك. وليس هذا كتابا فى الفرق. وإنما أردنا أن نقول إن بعضها كان قد ظهر، وإن دعواتها كانت تنشر، ونشوه هذه الفرق مظهر للاجتراء على الارتياء المخالف للموروث والقائم المقرر من العقائد والنظر، كما أنه وليد نزعات وخصائص فى الرقعة الشرقية من الفتوح العربية. وأحر بمن يعتاد الدخول مع أصحاب الكلام أن ينزع منزع التحرر.

ويكاد يكون محققا أن اتصال بشار بأصحاب الكلام كان من الأسباب التى قوت روح التمرد التى طبع عليها والتى ظهرت فى حداثته. ولا عجب أن ينتهى به الأمر إلى اتهامه بالزندقة، فهو أولا فارسى الأصل، وقد أورثه هذا وحده تمردا على العرب وما جاءوا به. ثم إنه متمرد بطبعه، وقد ولد ونشأ فى بلاد مضطربة به ولا تستقر على حال أو رأى. وعاش فى زمن انقلاب أفضى إلى انتصار العنصر الذى كان مغلوبا أى العنصر الفارسى، وصار اعتماد الدولة عليه لأنها قامت بفضله، فلهذا العنصر حظوة فيها ووجاهة، وله - بفضل ما وفق إليه - زهر واجتراء. وهناك تلك الحرية فى البحث والارتياء، وكان بشار يختلف إلى مسجد البصرة ويشترك مع المتكلمين وأصحاب المقالات الدينية والسياسية فإذا اضطرب أولا وتحير ثم انتهى إلى ما يشبه أن يكون زندقة فلا عجب فإن العوامل المفضية به إلى هذا أقوى من تلك التى كانت خليفة أن تمسكه وتصده، أو تفئ به إلى الاعتدال.

وكان بشار فى أول الأمر مفتونا بواصل بن عطاء زعيم مذهب المعتزلة ثم اختلف معه وانصرف عنه وهجاه. فكان من قوله فيه:

مالى أشايع غرالا، له عنق كنقنق الدو، إن ولى وان مثلا

عنق الزرافة ما بالى وبالكمو تكفرون رجالا كفروا رجلا

يقول لواصل وأصحابه لماذا تكفرون الخوارج من أجل أنهم كفروا عليا بعد التحكيم؟ وهذا بعد أن كان هو نفسه يكفر الأمة كلها بعد موت النبى ﷺ، ولا يستثنى عليا.

وبلغ من فساد الحال بينهما أن واصلا تحدث بأنه هم يدس إليه من يقتله لولا أن دينه وسجاياه يأبيان عليه الغيلة.

وقد قلت أنه رمى بالزندقة وأنه انتهى إلى ما يشبه أن يكونها، ولم أقل أنه كان زنديقا. ذلك أن الأمر مرجعه إلى السرائر وعلمها عند الله. وهى تخفى على أصحابها فكيف بغيرهم؟ وكل ما روى عنه لا يدل على أكثر من أنه كان مستخفا لا يبالى ما يقول أو يفعل، وأنه لم يكن من أهل التقى والورع. وكثير من الناس مثله، ولكنهم لم يرزقوا شهرته، فالعيون ليست عليهم، والألسنة لا تخوض فيهم ولا تلهج بهم. والشهوة فضاحة. ومن شأنها تجسيم الصغير والتهويل بالتافه. ولم يكتسبوا ما اكتسب من العداوة بطول لسانه وسلاطته فليس لأحد مصلحة فى الوقوع فيهم والتشنيع عليهم واتهامهم بالحق أو بالباطل.

وقد حكوا أن بعضهم قال "كنت أكلم بشارا وأورد عليه سوء مذهبه بميله إلى الإلحاد فكان يقول "لا أعرف إلا ما عانيته أو عانيت مثله" وكان الكلام يطول بيننا فقال لى "ما أظن الأمر يا أبا خالد إلا كما تقول. وإن الذى نحن فيه خذلان. ولذلك أقول:

طبعت على ما فى مخير هواى. ولو خيرت كنت المهذبا
أريد فلا أعطى، وأعطى ولم أرد وقصر علمى أن أنال المغيبا
فأصرف عن قصدى وعلمى مقصر وأمسى وما أعقبت إلا التعجبا

وليس هذا من الكفر والإلحاد فى شىء، وإنما يصف عجزه وقصوره وأقصى ما فيه أنه يقول بالجبرية وينفى الاختيار. ونسب إليه أنه طرب لصوت غنى به فى شعر له فقال "هذا والله أحسن من فلج يوم القيامة!" وقال عن غناء لجارية فى شعر آخر له "هذا والله أحسن من سورة الحشر!" وهى كما فلتات لسان رجل مستهتك أخرجه الطرب عن طوره ولعله كان ثملا.

وقالوا أنه كان يقدم النار على الطين ويذكر ذلك فى شعره فيقول:

الأرض مظلمة والنار مشرقة والنار معبودة مذ كانت النار

ويفضل إبليس على آدم فيقول:

إبليس أكرم من أبيكم آدم فتبينوا يا معشر الأشرار

النار عنصره وآدم طينة والطين لا يسمو سمو النار

وكله كلام لا محصول وراءه. وقد يكون الغرض منه الزراية بالناس الذين يقال إنه كان يتبرم بهم، ويضجر منهم، ولكنه على الحالين لا يعد مذهبا أو رأيا يستحق أن يسمى رأيا. وإنه لأحق بأن يسمى كلاما فارغا ومما عدوه من الاستخفاف الواشى برقة الدين ما حكوه من أنه سمع قاصا بالبصرة يقول "من صام رجبا وشعبان ورمضان بنى الله له قصرا فى الجنة صحنه ألف فرسخ فى مثلها، وعلوه ألف فرسخ، وكل باب من أبواب بيوته ومقاصره عشرة فراسخ فى مثلها" فالتفت بشار إلى قائده فقال "بئست والله الدار هذه فى كانون الثنائى.." أى فى يناير - قلب الشتاء. وما نحسب أحدا يرى فى هذا أكثر من نكتة يراد بها توكيد سخافة القاص ولو سمعت أنا من يزعم ذلك ما كنت قائلا إلا ما قال بشار أو نحوه.

وروى بعضهم أن بشارا كان فى دار المهدى، والناس ينتظرون الاذن فقال بعض موالى الخليفة لمن حضر "ما عندكم فى قول الله عز وجل "وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا، ومن الشجر" فقال له بشار "النحل التى يعرفها الناس" قال "هيهات يا أبا معاذ! معاذ! النحل بنو هاشم" العلم. فقال له بشار "أرانى الله طعامك وشرابك وشفاءك فيما

يخرج من بطون بنى هاشم! فقد أوسعتنا غـثاثة" فغضب وشتم بشارا. وبلغ المهدى الخبر فدعا بهما فسألهمـا عن القصة فحدثه بشار فضحك حتى أمسك على بطنه ثم قال للرجل "أجل. فجـعل الله طعامك وشرابك مما يخرج من بطون بنى هاشم، فإنك بارد غث".

وهو خيـر يلحق بسابقه. فـما فيـه أكثر من السخـر من التكلف الغث وأهم من ذلك أنه كان لا يرى يصلى، ولا يستر تقـصيره، فكان إذا حضرت الصلاة يقوم غيره ويقعد هو. فكلمـه بعضهم فى ذلك فقال "أن الذى يقبلها تفاريق جملة".

وهى كلمة تجرى مجرى كلامـه الآخر، من قلة المبالاة بما يقول أو يفعل وفيها من القصد إلى إظهار البراعة فى الجـدل والحوار أكثر مما فيها من القصد إلى الجد. وعلى أنه لم يقل إنه لا يصلى.

وقالوا إن الزندفة هى التى أوردته موارد التلف، وكـانت السبب المبشار فى قتله.

ورووا أن المهدى انحدر إلى البصرة، فلما بلغ ما بين واسط وبينها سمع أذانا فى وقت ضحـى النهار. فقـال "انظروا ما هذا الأذان" فـإذا بشار يؤذن وهو سكران. فقال له المهدى "يا زنديق.. عجبت أن يكون هذا غيرك! أتلهو بالأذان فى غير وقت الصلاة، وأنت سكران؟ ثم أمر بضربه بالسوط بين يديه سبعين صوتا أتلفه فيها.

وبقية الخبـر أنه كان إذا أوجعه السوط يقول "حس" وهى كلـمة يقولها العرب للشىء إذا أوجع. فـقال بعضـهم "أنظر إلى زندقته يا أمـير المؤمنين؟ يقول حس، ولا يقول باسم الله." فقال - أى بشار - أطعام هو فأسمى الله

عليه؟" فقال له آخر "أفلا قلت الحمد لله؟ قال "أو نعمة هى حتى أحمد الله عليها؟" فلما ضربه سبعين صوتا بأن الموت فيه، فألقى فى سفينة حتى مات ثم رمى به فى البطيحة فجاء بعض أهله فحملوه إلى البصرة فدفن بها.

وقد أطللنا الاقتباس عامدين لأنا نرى فى الخبر اضطرابا واضحا. وقبل أن نعرض لذلك نقول إن المهدى كان يعرف أن بشارا متهم بالزندقة، ومع ذلك مان يقربه ويستمع إلى مدائحه ويجيزه عليها، ويأنس به ويستظرفه، فلو أن الزندقة كانت علة الضرب لما صبر عليه أو أمهله حتى نيف على السبعين. ولو كان كل ما فى الأمر أنه سمعه يؤذن وهو سكران، لما كان خليقا أن يزيد على الحد، ولعله كان قمينا أن يعفو عنه. ولو أن المهدى كان قائلا أحدا من الزنادفة لزندقته لقتل مطيع بن إياس الذى وصفه المهدى نفسه بأنه خبيث الدين فاسق! واحتال حتى أنجاه.

وإنما كان ما كان من المهدى لأن بشارا هجاه أشنع الهجاء وهجا معه وزيره القوى يعقوب بن داود فقال فيهما:

بنى أمية هبوا طال نومكم إن الخليفة يعقوب بن داود

ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفة الله بين الزق والعود

وهجا أيضا صالح بن داود - وإلى البصرة - أخا الوزير يعقوب بن داود - فقال:

هم حملوا فوق المنابر صالحا أخاك، فضجت من أخيك المنابر

وله فى هجاء المهدى ما هو أقبح وأفحش. وقد سعى به الوشاة إلى يعقوب بن داود فسعى به هذا إلى المهدى فقال له "يا أمير المؤمنين إن هذا

الأعمى الملحد الزنديق قد هجاك" قال "بأى شىء؟" قال "بما لا ينطق به لسانى، ولا يتوهمه فكرى" قال له "بحياتى إلا ما أنشدتنى" فقال "والله لو خيرتنى بين أنشادى إياه وبين ضرب عنقى لاخترت ضرب عنقى" فحلف عليه المهدى بالايمان التى لافسحة فيها أن يخبره. فقال "أما لفظا فلا، ولكنى أكتب ذلك." فكتبه ودفعه إليه فكاد يتشق غيظا. والأرجح أن عبارة هذا الخبر موضوعة، فإنها غير معزوة إلى أحد - ولم نقرأ أن هذا الحديث سمعه ثالث، ولكنه هو الذى يعقل أن يقول مثله وزير مغيظ محنق، فى موطن وشاية وسعاية وتحريض.

على أن هناك رواية أخرى تقول إن يعقوب بن داود بعد أن سعى بيشار إلى المهدى، خاف أن يقدم بشار على الخليفة فيمدحه فيعفو عنه، فوجه إليه من استقبله فضربه بالسياط حتى قتله ثم ألقاه فى البطيحة.

فإذا كان الوزير يخشى أن يعفو المهدى عن بشار بعد أن هجاه هجاء قبيحا، وسبه وسب عماته، وزوجته الخيزران أم ولديه موسى وهارون الرشد، أفلا يعفو عن سكره ولهوه؟

وواضح من الروايتين أن هناك اختلافا فيمن أمر بضربه حتى مات. أهو المهدى نفسه أم وزيرة؟ ولكن المحقق أن نقمة الوزير عليه هى التى أوردته هذا المورد. وقد صار الوزير فيما بعد إلى شر من هذا المصير، فحبسه المهدى فى قاع بئر عدة أعوام، حتى عمى وهدى، ولم يخرجه إلا الرشيد، ويشبه هذا أن يكون انتقاما إليها.

وقد قلنا فى الخبر الأول - الذى يروى فيه أن المهدى هو الذى أمر بضرب بشار بين يديه - اضطرابا. ونحسب أن هذا جلى، فإنه إذا كانت

الزندقة حين يقولها بشار؟ ثم إن عبارة "باسم الله" ليست مما يقوله من يضرب بالسياط حتى يستغرب من بشار وينكر عليه تركها وإيثار غيرها. وليس هذا الوقت مزاح حتى يرد بشار هذا الرد للضحك والسياط تلهب جلده، وتتوالى عليه حتى تزهق روحه، وصحيح أنه كان قوى البدن لا يشتكى شيئا، ولكنه كان قد جاوز السبعين على ما يقال فهو شيخ هرم لا يحتمل ما حتمله الشاب القوى. وإذا قيل إنه كان سكران فلا يبعد أن يمزح فى أول الضرب قلنا أن ما رأى من غضب المهدى وأمره أن يضرب بين يديه ضرب التلف كان خليقا أن يذهب عنه السكرة جدا.

وجملة القول أن تهمة الزندقة إنما جاءته ولصقت به فيما أرى من طول لسانه، على الأكثر، دون فعله، فما أكثر من لا يصلون ولا يصومون - أو لا يصومون إلا صوما رقيقا كبشار - ويشربون الخمر وينهزون مع الغواة بدلائهم، ولا يخطر لأحد مع ذلك أن يرميهم بالمروق من الدين. ولكن بشارا كان شاعرا هجاءا يثلب الصديق كثلبه للعدو، ولا يزال يقع فى كل ذى قدر وجاه ومكانة، من العلماء والولاة والسراة، ولا يتقى أن يشتم الوزراء والخليفة نفسه أوجع الشتم، ولا ينفك يتوعد بالذم كل من أبطأ أو تلكأ عليه فى العطاء، حتى لقد كان يعجل بالهجاء من أجل قوصرة (وعاء) تمر أو أضحية يبعث بها إليه بعضهم كل سنة - كل سنة لا كل شهر ولا كل أسبوع - فكان الناس يفتدون أنفسهم منه بما يعطونه مخافة أن يقعوا فى لسانه. بل قد هجا جارا له صديقا بعث إليه يطلب ثيابا بنسيئة فلم يصادفها عنده. فلما رد الجار هذه "التحية" بشر منها، غضب وندم على تعرضه لرجل لا نباهة، وجعل ينطح الحائط برأسه ويقول "لا تعضرت لهجاء سفله مثل هذا أبدا" لأنه كان

اتخذ الهجاء تجارة، وجعل منه وسيلة للابتزاز مخافة التشهير Blackmail فكرهه الناس جميعا سراتهم وعامتهم، وهولوا بكل ما رأوا وسمعوا وبلغهم عنه.

حتى غزله أثار عليه سخط العامة والخاصة، لأنه توخى فيه ما يدور على معانى الحس استهتر به النساء والشبان، ولامه فى ذلك أهل الورع وعامة الناس أيضا، ولما كثر ذلك وارتفعت أخباره إلى المهدى نهاه عن ذكر النساء. وكان أيضا يثير الموالى ويحرضهم على ترك الولاء والرجوع إلى أصولهم. فكان هذا مما زاد السخط عليه والكره له.

فلما مات وأخرجت جنازته لم يتبعها أحد إلا أمة سوداء سندية عجماء لا تفصح جعلت تصيح خلف جنازته "واسيداه.. واسيداه.." وتباشر عامة أهل البصرة وهنأ بعضهم بعضا، وحمدوا الله، وتصدقوا لما كانوا منوا به من لسانه. وقال فيه أبو هشام الباهلى:

يا بؤس ميت لم يبكه أحد ... أجل، ولم يفتقده مفتقد

لا أم أولاده بكته، ولم ... يبك عليه لفرقة، ولد

ولا ابن أخت بكى ولا اخ ... ولا حميم رقت له كبد

بل زعموا أن أهله، ... لما أتاهم نعيه، سجدوا

وقال أيضا:

قد تبع الأعمى قفا عجرد ... فأصبحا جارين فى دار

قالت بقاع الأرض لا مرحبا ... بروح حماد وبشار

تجاورا بعد تنائيهما ... ما أبغض الجار إلى الجار

صارا جميعا في يدي مالك في النار. والكفار في النار

وقد أهملنا خبرا قيل فيه إنه لما مات بشار بعث المهدى إلى منزله من يفتشه فوجد فيه طومار (أى صحيفة) فيه "بسم الله الرحمن الرحيم. إنى أردا هجاء آل سليمان بن على لبخلهم، فذكرت قرابتهم من رسول الله ﷺ فأمسكت على لبخلهم، فذكرت قرابتهم من رسول الله ﷺ فأمسكت عنهم إجلالا له ﷺ"

قالوا فلما قرأه المهدى بكى وندم على قتله وقال "لا جزى الله يعقوب بن داود خيرا!. فإنه لما هجاه لفق عندى شهودا على أنه زنديق فقتلته! ثم ندمت حين لا يغنى الندم".

أهملنا هذا الخبر لأنه لو كان بشار يمسك عن هجاء أحد من أجل قرابته لرسول الله، لأمسك عن هجاء المهدى نفسه، ثم أنا لم نقرأ شيئا يستفاد منه أنه كان يتخذ أحدًا كاتبًا، وإنما كان هناك من يروون شعره، وهذه هى الجملة الوحيدة التى قيل إنها وجدت فى صحيفة عنده بعد موته، فلو كان يعنى، على خلاف المألوف، بتدوين "مذكرات" أو املائها لعثر الناس على غيرها. فما يعقل أن يعيش نيفًا وسبعين سنة، أو تسعين على قول آخر ولا يثبت فى مذكراته إلا أنه هم بهجاء رجل فعدل.

وليس معنى هذا أنه كان مسلمًا تقيًا ورعًا، وأنه يصلح أن يكون قدوة لغيره، ومثالا يحتذيه سواه، فما كان كذلك. وأحسب أن أقصى ما يقال فيه أنه ولد مسلما، فهو على الإسلام، ولكنه شب متمردًا، فهو لا يزال يخرج على المألوف ما استطاع أن يفعل، وقد آثر أن يكون مرهوب الجانب مخشى اللسان، وأن ينشد القوة من هذه السبيل التى لم يدع له العمى سواها،

فمضى سادراً لا يرعوى ولا يتحرج. ولعله لو استطاع أن يكفر علانية وهو آمن لفعل. ولكنه لم يفعل. ولو أنه كان كفر لما كان ذلك منه عن اقتناع بأن دينًا آخر خير من الإسلام، بل لكان مظهراً لتمرده على ما هو قائم، على أن هذه أمور لا يقال فيها بالحدس ولا بالترجيح، وما دام الرجل لم يصرح بكفره فالأحجى أن ندع سريرته لعلام الغيوب.

***

obeikandl.com

[٧]

ولا مراء أن بشارا كـان ضيق الصدر. قال عنه الأصـمعى إنه كان "من أشد الناس تبرمـا بالناس". وكان هو يقول "الحمـد لله الذى ذهب ببصرى" فقيل له مرة "ولم يا أبا معاذ؟" فقال "لئلا أرى من أبغض"

ومن شعره:

وكيف يـخف لى بصرى وسـمعى وحـولى عـسكران من الثـقـال؟

قـعـودا حـول دسكرتـى وعندى كـأ، لهـم على فـضـول مـال

بين حاله وحال غيره، وما يفضى به إليـه نزوعه إلى التجبر، وما يلقاه من عنت الناس وإن كـان قـد كلفهـم من ذلك فوق مـا كلفـوه، ومن المرارة الطبيعيـة التى عميقا. وكان نكتـة أو كلمة سخر تكفى لشفائـه منه. فقد كان أميل إلى المرح مـنه إلى الكآبة والحزن. وكان مـعنيا بانتـهاب العـيش واغتنام فرصه أكثر مما هو معنى بالتأمل والتـدبر والتفكر. ومن هذا المعدن نفسه سخر بيته أو فكاهته.

وقوله "كأن لهم على فضول مال" معنى تكرر فيها روى من أخباره.

قال أحـد رواة شعره - يحيى بن الجـون العبدى - كنا عند بشـار يوما فأنشدنا قوله:

وجـــارية خـلقـت وحـــدها كـــأن النسـاء لـديهـــا خـــدم

(إلى أن يقول)

فلمـــا رأيت الهـــوى قـــاتـلى ولسـت بـجـــار ولا بـابن عـم

دســـست إليـــهـــا أبـا مـجـلز وأى فـتـى، أن أصـاب ا- ـتـزم

فــمـــا زال حــتـى أنابـت له فـــراح وحل لـنا مـــا حـــرم

فقـال له رجل "ومن أبو مجلز هذا يا أبا معـاذ؟" قال "وما حـاجتك إليه؟ لك عليه دين؟ أو تطالبـه بطائله؟ (يعنى بثأر) هو رجل يتردد بينى وبين معارفى فى رسائل".

وكان كثيـرا ما يحشو شعره بمثل هذا إذا أعوزته القـافية أو المعنى، وقد سألوه مرة من مغنى البصرة" فـقال "وما عليكم منه؟ ألكم قبله دين فتطالبوه به؟ أو ثأر تريدون أن تدركـوه؟ أو كـفلت لكم بـه فإذا غـاب طالبـتـمـونى باحضاره؟"

حتـى فى نكاته يتجـه ذهنه إلى هذه الناحيـة. قالوا - مـرت به جنازة مسرعة فقال "ما لهم مسرعين؟ أتراهم سرقوه فهم يخافون أن يلحقوا فيؤخذ منهم؟"

وتوفى ابن لبشار - كـما سيجئ - فجـزع عليه فقيل له "أجر قـدمته، وفرط افترطته، وذخر أحرزته" فقال "ولد دفنته وثكل تعجلته، وغيب وعدته فانتظرته، والله لئن لم أجزع للنقص، لا أفرح للزيادة".

فهو حساب نقص وزيادة، وخسارة وربح، حتى فى هذا الموقف.

وهذه الأخـبار ومـا إليهـا - إذا صدقت - ظاهرة الدلالة. وإذا كـانت موضوعة فهى مظهر لرأى معاصريه فيه.

وقد مضى بنا القول فى اعتزازه بنفسه، ومما هو بسبيل من ذلك ومما نحن فيه أيضا ما رواه بعضهم. قال "قلت لبشار إنى أنشدت فلانا قولك:

إذا أنت لم تشرب مرارا على القذى

ظمئت. وأى الناس تصفو مشاربه؟

فقال لى "ما كنت أظنه إلا لرجل كبير" فقال بشار "ويلك.. أفلا قلت له: هو والله لأكبر الجن والإنس؟"

واستقل مرة عطاء فقال إنه ينصرف عن البخلاء، ويبقى "ثلج المقيل"

فى ظل عش عشيرة محمودة تندى يدى، ويخاف فرط لسانى

وقال يخاطب خالد بن برمك:

فان تعطنى أفرغ عليك مدائحى وإن تأب، لم يضرب على سداد

فهو يمدح على العطاء ليس إلا، ولا قيمة للفضل والمزية.

ركابى على حرف، وقلبى مشيع ومالى بأرض الباخلين بلاد

إذا نكرتنى بلدة، أو نكرتها خرجت مع البازى، على سواد

وتبدو هذه الروح أيضا فى قوله، وقد مر بك:

من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

وكذلك كان بشار فى حياته - لا يبالى شيئا، ولا يكترث لأدب أو خلق أو مروءة - إلا نادرًا - ولا يعنيه غير إدراك مبتغاه، فلم يعش بالفضيلة، أو لم يكن من همه، أو لم يكلف نفسه، أن يعيش بها. والذى كان منه فى حياته من الخير ما أحسبه كان إلا لأنه من إنسان إلا وفيه بعض الخير.

ويؤخذ من أخباره أنه توفى له ابن وبنت فى حداثتهما. وقد قال يرثى ابنه

أجارتنا لا تجزعى وأنيبى ... عجبت لإسراع المنية نحوه
بنى على رغمى وسخطى رزئته ... أتانى من الموت المطل قليب
وكان كريحان الغصون تخاله ... وبدل أحجارا وجال[1] قليب
أصيب بنى حين أورق غصنه ... ذوى بعد إشراق يسر، وطيب
عجبت لإسراع المنية غصنه ... وألقى على الهم كل قريب

وتذكرنا هذه الأبيات بقصيدة ابن الرومى فى رثائه لابنه محمد وقد كات فى حداثته الغضة. وهى من أروع ما فى الشعر العربى ومطلعها - يخاطب عينيه -:

بكاؤ كما يشفى، وإن كان لا يجدى ... فجودا فقد أودى نظير كما عندى

وفيها يقول:

ترخى حمام الموت أوسط صبيتى ... فلله كيف اختار واسطة العقد
على حين شمت الخير من لمحاته ... وآنست من أفعاله سمة الرشد
ألح عليه النزف حتى أحاله ... إلى صفرة الجادى عن حمرة الورد
وظل على الأيدى تساقط نفسه ... ويذوى كما يذوى القضيب الرند

والأمر يقف عند هذا التشابه العام الذى يرجع إلى أن الموضوع واحد،

---

(١) الجال: الجانب.

وفرق بعيد بين القصيدتين. ولكن النفس فيها متقارب على الرغم من التفاوت.

وماتت له بنيه، فقال بنتا ... ما كنت إلا خمسة أو ستا

حتى حللت فى الحشى وحتى ... فتت قلبى من جوى فانفتا

لأنت خير من غلام بتا ... يصبح سكران ويمسى بهتا

وحتى هنا يوازن، ويحسب، ويقيس! وعسى أن يكون الذى أغراه بالموازنة أنه لم يكن، كما يقول، يهوى البنات، وألفى نفسه مضطرا أن يرثى بنته ولم نقرأ أنه كان له غيرهما. ولما مات، قيل إنه لم يخرج وراء جنازته سوى أمه سوداء. فيبدو من هذا أنه لم يعش له من ولده أحد.

وقد عمى بشار - كما نعرف - جنينا. وهذا لا يكون إلا لسبب، فما يعمى الجنين فى بطن أمه لغير علة من قبل أحد الوالدين أو كليهما، أو من مرض دفين موروث، وليس بمستبعد أن يكون أبوه قد أصيب بمرض تناسلى فذهب ببصر الجنين. ثم إن بشارا فقد ابنه وبنته وهما صغيران. وليست هذه آية صحة، وإن كان غير بعيد أن يكون الموت قد حدث فى هذه السن الغضة - الخامسة أو السادسة - من جراء الإهمال أو سوء العلاج أو الجهل أو غير ذلك على أن بشارا كان قوى البدن بادى الصحة. وقد جاوز السبعين على الأرجح والتسعين على قول آخر مرجوح. ولم نقرأ شيئا عن مرض أصابه. ولا تسمح لنا قلة أخباره بأن نقطع فى هذا الأمر.